تاريخ الارسال: 2018/05/17 تاريخ النشر : جوان 2018

# الغزل و الهجاء في شعر الأكمه بشار بن برد

*Flirtation and satire poetry in the blind Bachar Ibn Burd's work*

د.سعود فطيمة

جامعة الجلفة

Abstract

The eras of arab literature were between strength and wekness. The abassi era was the peak of literature eras, it knew openess and mixture between civilization : Persians, Romans, Greeks, Indians …. This led to i richness in knowledge. It opened new horizons for it. The life of Arabs turned from being Nomads to civilized. This influenced the literary and poetry life. So, there was a generation of poets who made revolition against known inherited habits. They set for then selves new art rules. Among those poets, we find the blind poet : ( BACHAR IBN BURD) . he was known for satire and love poems. He had his reasons for concertrating on these kinds of poems. Some of these latter were good, others bad ethically and in terms of arts. Still, he is always considered as an intermal poet.

keyword

Abbasid era – Bachar Ibn Burd – His life – His culture – Blindness – His religion – flirtation poetry – stire poetry – Love philosophy – Hate Philosophy .

الملخص بالعربية:

تنوعت عصور الأدب العربي بين القوة والضعف، ولقد كان العصر العباسي بحق زهرة العصور الأدبية لما عرفه من انفتاح وتمازج بين الحضارات من فرس وروم ويونان وهند وغيرها، مما أثرى علومه ومعارفه، وفتح أمامه آفاقا جديدة لتتحول حياة العرب من البداوة إلى الحضارة، وانعكس ذلك على الحياة الأدبية والشعرية منها، فظهر جيل من الشعراء المجددين الثائرين على التقاليد الأدبية الموروثة، واضعين لأنفسهم قواعد فنية خاصة بهم، ومن هؤلاء الشاعر الأعمى: " بشار بن برد"، وقد عرف خاصة بغرضي الهجاء والغزل وكانت له دوافعه في التركيز على هذين الغرضين، وتنوع شعره بين جودة وإسفاف فنيا وأخلاقيا، إلا أن براعته كانت غالبة عليه مما جعل اسمه محفورا في قائمة الخلود الأدبي.

الكلمات المفتاحية:

العصر العباسي، بشار بن برد، حياته، ثقافته، الكمه، معتقده، الغزل، الهجاء، فلسفة الحب، فلسفة الكره.

مقدمة :

عرف العصر العباسي " زهرة العصور الأدبية" شعراء صالوا وجالوا في شتى أغراض الشعر القديمة والمستحدثة برؤى جيدة، وصور زاهية الألوان، رقيقة الألفاظ، سلسلة الأساليب، تتماشى مع تغير طبيعة الحياة في العصر العباسي من البداوة إلى الحضارة، ومن هؤلاء الأكمه: بشار بن برد الذي عرف بغرضي الهجاء والغزل بصفة خاصة. فما هي دوافعه في التركيز على هذين الغرضين، وما هي خصائصهما الفنية؟

انتماء وحياة بشار بن برد:

1. اسمه مولده و نسبه: (مولده 95هـ/714م_وفاته 167هـ/784م)1:

هو بشار بن برد بن يرجوخ،ولد بالبصرة،من موالي بني عقيل،و قد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم،إذ يقول[2]:

و قيصرٌ خالي إذا عددتُ يوما نسبي

و إن صح ذلك،كان فارسي الأب،رومي الأم.وكان بشار كثير التلون في ولائه،للعرب مرة،و للعجم أخرى،يفتخر بولائه في قيس،فيقول[3]:

أمنّتُ مَضرَّة الفُحشاء أنـي أرى قيساً تُضُرُّ و لا تُضارُ
كأنّ الناسَ حينَ تغيبُ عنهم نباتُ الأرض أخطأهُ القطارُ

ومرّة يتبرّأ من ولاء العرب فيقول[4]:

أصبحتُ مولى ذي الجلالِ و بعضهم مَولى العُريب فَخُذ بفَضلك فافخَر
مولاكَ أكرمُ من تميمٍ كُلُّها أهل الفَعالِ و من قريش المِشعرِ

و قال يفتخر لولاء بني عقيل[5]:

إنني من بني عُقيل بن كعب فُروعي و أصلي قُريشُ العَجم
فاني لأغنى مقام الفتّي و أصبي الفتاة فما تعتصم

و بشار من مخضرمي الدولتين العباسية و الأموية.[6]

كان يكنى أبا معاذ،ويلقّب بالمرّعث[7]، وقد وُلد بشّار أكمه لم يبصر الدنيا قط،و نشأ على الفقر[8]، إذ كان أبوه طيّانا شظف العيش،ولقد عيّره به حمّاد عِجر هاجيا قوله[9] :

و لَريحُ الخنزير أهونُ من ري حِكَ يا بنَ الطيّان ذي التُّبان

وكان له أخوان،أحدهما أعرج،و الآخر أبتر اليد[10].وقد يتّم بشار من أبيه هو بعد صغير[11]."وأخبار بشار قليلة في أسرته،إذ قيل انه كان له امرأة و أطفال صغار،يستعطف بهم ممدوحيه رجاء مضاعفة الجائزة،و قد اختطف القدر منه ابنه و ابنته"12.و عن شكله أجمعت الأخبار على قبح و فظاعة و ضخامة منظره،و منها قول امرأة بشار:ما أدري لمَ يهابُك الناس مع قُبح وجهك؟فقال لها بشار:ليس من حسنه يهاب الأسد[13].

2/ ثقافته و معتقده وآثاره:

اتجه بشار منذ نعومة أظافره إلى المساجد و إلى مربد البصرة،ينهل من حلقات العلم والشعر،و أعانته نشأته في بني عقيل،على أن يتمثل السليقة العربية،و لم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه[14]. ولقد تعرّض لجرير بالهجاء طلبا للشهرة،و لكن جريرا استصغره،فأعرض عنه[15].و كان إذا أراد الإنشاد صفّق بيديه وتنحنح، و بصق يمينا و شمالا،ثم ينشد فيأتي بالعجب[16].

أما معتقده فقد اختلط بشار بالعلماء من أمثال واصل بن عطاء،مما هيأ له أسباب الإحاطة بمذاهب المتكلمين و الزنادقة،غير انه خالفهم،و قال بالجبرية،معلنا إلحاده،من مثل قوله [17]:

الأرضُ مظلمةٌ و النارُ مشرقة و النارُ معبودةٌ مُذ كانت النارُ

وتدور الأيام ليدفع بشار ثمن خلاعته و استهتاره و زندقيته تعذيبا و قتلا[18].فلقد طال لسانه الهجاء،و تناول وزير المهدي يعقوب بن داود،و المهدي نفسه،فاتهم بالزندقة،و بأن غزله فاحش يدعو إلى الفسق،ثم قتل بأمر من المهدي،مضروبا بالسوط و قد أوفى على السبعين[19].ولم يتبع جنازته أحد إلا أمة سوداء،بل إن أهل البصرة هنّأ بعضهم بعضا وحمدوا الله لما كان أصابهم من سلاطة لسانه[20].

ولقد عُرف عنه إلى ذلك،سرعة بديهته،و ارتجاله،وشيوع شعره و رواجه حتى قيل:"ليس في البصرة غَزَلٌ ولا غَزَلة إلاّ يروي من شعر بشار،و لا نائحةٌ و لا مغنيةٌ،إلاّ تتكسّب به،و لا ذو شرف إلاّ و هو يهابه،و يخاف معرّة لسانه"[21].

طرق بشار أغلب الأغراض الشعرية " إذ لم يدع بابا من أبواب الشعر إلاّ طرقه وأجاد فيه"[22]. " فكان بشار من المتفننين في الشعر،القائلين في أكثر أجناسه و ضروبه ولكنه برع في الفخر،و الغزل،و الهجاء،و الحكمة"[23]و"اشتهر بالهجاء،و شعر الخمرة والمجون،و له ديوان شعري"24،كما عُرف عنه نقده للشعر[25].

ويصفه صاحب العمدة بالمولد و يقدمه على كثير من الشعراء بعد أن يذكر أسماءهم قائلا:"و فوق هؤلاء كلهم طبقة في السن،أشهرهم و أشعرهم بشار بن برد،و ليس بفضل على الحسن مُولّدٌ سواه،وكذا روى الجاحظ و غيره من العلماء"26.و يقول صاحب الأغاني:"و مَحَلُّهُ في الشعر و تقَدُّمه طبقات المحدثين فيه بإجماع الرُواة،ورياسَتُه عليهم من غير اختلاف في ذلك يُغني عن وصفه و إطالة ذكر محله،و هو من مخضرمي الدولتين العباسية والأموية،قد شهُرَ فيهما و مَدح و هَجَا و أخذَ سنيّ الجوائز"[27].

3/ معنى الكمه:

كمه: الكَمَه: العمى الذي يولد به الإنسان،كمه بصره،كمها و هو أكمه "وتبرئ الأكمه " وربما جاء الكمه في الشعر:العمى العارض، وذكر أهل اللغة:أن الكمه يكون خلقة،ويكون حادثا بعد بصر،وقال ابن الأعرابي:الأكمه الذي يبصر بالنهار و لا يبصر بالليل».[28]

إن الشاعر انسان مرهف الشعور، فإذا أكمه زادت رهافته لتصبح شاعريته قناعا لذاته و تفريغا discharge لباطنه،وآلية دفاعية mechanism تُحصنه ضد اكتئابه..والشعر قطعة من نفس الشاعر"[29]. فـ«... الأعمى عاجز عن السيطرة عن البيئة المحيطة به، فينجم عن هذا خوفه من ملاحظة الآخرين له، لأنه يشعر بأنهم دائما يراقبونه، مما يجعله قلقا متحرجا ويعرضه للإجهاد العصبي والتخوف و الشعور بفقدان الأمن ، وهذا يؤثر عن صحته النفسية بما يحدثه من التوتر أو الوجدانية.[30]

ولأن طبيعة العلاقة بين الآداب و النفس تبادلية فالنفس تصنع الأدب،وكذا يصنع الأدب النفس[31] كان لابد من تسليط الضوء على نفسيات هؤلاء الشعراء العميان في العصر العباسي وما يختلج في صدورهم من مشاعر وأحاسيس. ذلك أن" الشعور ليس شيئا يضاف إلى الصورة الحسية،وإنما الشعور هو الصورة"[32].

4/ فلسفة الحب في شعر بشار بن برد:

4. 1. الحرمان والألم: إن الحرمان من البصر هو أسوأ حرمان قد يصاب به الإنسان في حياته حسب علماء النفس، و الأمى طوال الوقت يشعر بوطأة هذا الحرمان لذا « فالباعث النفسي هو الذي جذر في دخائل أنفسهم الإحساس فداحة المصاب... خاصة في ظروف بيئية واجتماعية وثقافية تترصدهم في كل خطوة »[33] مما يجعلهم على الدوام مستحضرين لهذه العاهة، فالأعمى كما يقول طه حسين: « يحمل في نفسه ينبوعا من ينابيع الشقاء لا سبيل إلى أن يغيض أو ينضب إلا يوم يغيض ينبوع حياته نفسه، وهذه الآفة ... أقوى منه ... تؤذيه في دخيلة نفسه و أعماق ضميره...»[34]

وهذا بشار يُعيّر بعماه، من ذلك قول أبي هشام الباهلي يهجوه:[35]

وعَبدي فَقَا عينيكَ في الرَّحمِ أيرُه فَجِئتَ ولم تَعلم لِعَينَيكَ فَاقِيَا

أأُمُكَ يا بَشَار كانت عَفِيفةً؟ عَليّ إذًا مشيٌ إلى البَيتِ حَافِيا

ولم يَـزل بشـار منـذ قـال فيـه هـذين البيتـين منكسـرا."إن طبيعـة بشـار لم تكـن بسـيطة ولا سـاذجة،بل كانـت معقدة،فقـد كـان فارسـي الأصـل، وورث عـن الفـرس حـدة المزاج،ونشـأ قنـا ابـن قن،وولـد أعمـى لا يُبصـر، لـذلك يحس بغير قليـل مـن المرارة،وضـاعفها في نفسـه، فقـر أسـرته و تخلفهـا في المجتمـع"[36] . وكـان يصـل بـه الأمـر إلى درجـة البكاء المر يقول:" انه يراني فيصفني، ولا أراه فأصفه"[37]حين قال فيه حماد عجرد:

ويا أقبَحَ من قِردٍ إذا مـا عَمى القِردُ

"لقد كان أهل زمانه ينظرون إليه نظرة نقص وإشفاق و استهانة...وكان هذا الأمر يضاعف من شعوره بالحسرة و الندم فالقدر انتزع منه نعمة الأصل..ثم احنى عليه بمصيبة القبح والعمى. وجعل الشاعر يتوهم أنه لا عدل و لا حقيقة في الحياة،وأنه يحمل لعنة مجهولة"[38] لذلك كله كان يشعر بالألم و الحرمان.

4. 2. التبرير والتعويض:

إن العمى ليس مجرد فقد للبصر وإنما هو فقد يؤثر على الروح أكثر من تأثيره على وظيفة الجارحة و المتمعن لشعر هـؤلاء العميـان يجـد تـأثير هـذه العاهـة اذ يصـور شـعرهم أبعـادهم النفسـية مـن الإحسـاس بالحرمـان و المـرارة و الانكسـار و مـن ثم السـخط و الشـكوى و محاولـة التعويض،فقـد ولـد بشـار أعمـى فمـا نظـر إلى الـدنيا قـط[39] و أراد أن يعـوض نقصـه وعاهـة العمـى بـأن أوقـد ذكـاءه و نمّاه،وأقبـل علـى الشـعر يتفـنن فيـه و يبدع،مؤكـدا أن مهـارات الأعمى تفوق مهرات المبصرين،يقول[40]:

| | |
|---|---|
| اذا وُلِـــــد المولُـــــودُ أعمـــــى وَجدتُـــــهُ | وجَـــدِّك أهـــدَى مـــن بصـــير و أجـــولا |
| عَميـــتُ جنِينًـــا و الـــذكَاءُ مـــن العَمـــى | فجِئـــتُ عجيـــبَ الظـــنِّ للعَـــامِ مُـــوئلاَ |
| وغَـــاضَ ضـــيَاءُ العَـــينِ للعلـــم رافـــد | وقلـــب اذا مـــا ضـــيَّع النَـــاسَ حَصَّـــلا |
| و شِـــعرٍ كنـــورِ الـــروض لاءمـــت بينـــه | بقـــولٍ اذا مـــا أحـــزنَ الشِّـــعرُ أســـهلاَ |

وكـان بشـار متوقـد الـذكاء حاضـر الجـواب[41]، وتـروي الروايـات أن أحـدا أراد أن يسـرق تفاحـا كـان موضـوعا بـين يـدي بشـار وهـو جـالس علـى بابه،فمـدّ يـده متسـلّلا ليتنـاول منه،فضـربه بشـار فقـال لـه السـارق:كيف لـك أن تـراني وأنـت أعمى.فقـال لـه بشـار يـا أحمـق فـأين الحـس؟[42] "...وقـد قـوّى العمـى شـاعريته لانصـراف المخيلـى إلى التصـور... ولـذلك أكثـر العميـان مـن الشـعراء يفوقـون معاصـريهم في سـعة الخيـال مثـل هـوميروس اليونـاني وملـتن الانجليـزي، وبشار وأبي العلاء و غيرهما عند العرب"[43] .

ويعجـب بشـار لمـن ينكـر معرفتـه بالجمـال وتـأثره بـه وهـو أعمـى فيقـول إنـه يسـتعيض عـن البصـر بـالفؤاد مـن خـلال هذه الصورة الفنية القائمة على الحوار:

قالت عُقيلُ بن كعبٍ إذ تَعلّقهـا قلبي فأضحى به من حُبّها أثرُ
أنّ و لم تَرها تصبُو فقلتُ لهـم: ان الفُؤادَ يرى ما لا يرى البصرُ[44]

وقـال هـلال بـن عطيـة لبشـار،وكان لـه صـديقا يمازحـه: "ا ناهلـه لم يُـذهب بصـر أحـد الا عوضـه بشـيء كمـا عوّضـك؟قال:ألّا ولا أمثالـك مـن الـثقلاء[45] وفي روايـة أخـرى يقـول: "الحمـد الله الـذي ذهـب ببصـري فقيـل لـه:ولم يـا

أبا مُعاذ؟قال: لئلا أرى من أبغض "[46]. ويحاول بشار قلب المصاب نعمة، رادا بذلك عمن يعيره بعماه،فيقول مدعيا ما ليس فيه:

وعيَّرني الأعداءُ و العيبُ فيهم ولـيسَ بِعارٍ أن يُقالَ ضريرُ إذا أبصَرَ المرءُ المروءة و التُقى
فانّ عَمى العينينِ ليسَ يضِيرُ رَأيتُ العَمَى أجرًا وذُخرًا و عِصمةً وانـي إلى تلك الثَلاثِ فقيرُ[47]

ولأن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم كما يقال فلقد كان الهجاء لدى بشار "تعبيرا ايجابيا عن واقعه النفسي، ذلك أن الهجاء ليس إلا تجسيدا للقبح والتشويه و المنكر. لقد كان هجاء بشار سخرية بالقيم التي ترسمها البشر ... لقد كان ذلك ثأرا منها، وتعوضا عن النقص الذي مني به»[48].

والمتأمل لهذه الأبيات الناطقة بمكنون نفوس هؤلاء الشعراء العميان،مُدركٌ لا محالة استماتهم في المراوغة و قلب الحقائق، وإبدال المصاب نعمة فان كان هذا الكفيف هان عليه فقد حبيبتيه إذ كُفي النظر إلى من يُبغض،فلقد تغافل حينا أنه فاته رؤية ما يحب مما يدخل السرور على قلبه .إنها خدعة نفسية غير أن مثل هذا التبرير و التعلل، وان كان مؤقتا يخفف من وطأة هذه المأساة على صاحبها، ويرضي بها فاقد الشيء شعوره "فلجوء الفرد إلى أساليب في تزيف الحقائق و خداع النفس ،يريح البعض من بعض ألم وضغوط الصراع، وقد يساعد الفرد إن يغفل ولو لفترة الصراع الذي يعانيه.[49]" وبين الصراع و الغفلة تنبثق صورهم الفنية معبرة عن أبعادهم النفسية إذ نستشف من خلال شعرهم ألمهم الدفين ومحاولة مداراته ونُعظِم إذ ذاك، صنيعهم لتخطي هذا الألم الرابض الذي يتآكلهم داخليا.

### 4. 3. غزل بشار الماجن وخصائصه الفنية:

يحاول بشار مجاهدة العمى بأن لا يسمح له أن يحرمه من تحصيل اللذة ، بل يعب منها مثله مثل المبصرين إن لم يكن أكثر منهم ، يبدو ذلك جليا من ردوده على مجادليه، وأشعاره التي يعتز فيها بنفسه، فيسعى لإظهار مقدرته على التمتع بمباهج الحياة، و العبّ من لذائذها. دونما اعتبار لغير رغبته الأكيدة في ذلك يقول مثلا من خلال صورة فنية تقوم على الحوار والسؤال والجواب بينه وبين لائم له:[50]

قد لامني في خَليلَتي عُمَرُ واللَومُ في غيرِ كُنهِهِ قَدَرُ
قال أفقْ! قلتُ: لا! قال: بلى قد شاع للناس منكما الخبرُ
قلتُ: و إذ شاع ما اعتذارُك مما ليس لي فيه عندهمْ عذرُ
ماذا عليهم وما لهم خرسُوا لو أنهم في عيوبهم نظروا

وكان لذلك أثر عميق في غزله إذ طبعه بطوابع الحس، ونحو الإفصاح في وضوح عن الغريزة النوعية إفصاحا بث فيه كل ما استطاع من فحش و إثم وفسق ، لا يتحرج ولا يرعى دينا ولا خلقا ، حتى ليصور جانبه الحيواني الجشع ، عامدا إلى التفصيل أحيانا ، و أحيانا إلى الإجمال بمثل قوله :

فَبِتْنَا مَعًا لا يَخْلُصُ الماءُ بَيْنَنَا إلَى الصبح دوني حاجبٌ وستورُ

وقد مضى يحض حضا صريحا على الإثم ويغرى الناس بفتنة الجسد ، وكأنما لم يعد لجمال المرأة عنده من معنى نفسي سام ، فقد رذ جمالها كله إلى جسدها و أصبحت في رأيه أداة للغريزة الجنسية ،أداة طيعة تنال مهما تأبت واستعصت ،إذ لا تلبث أن ترضى وأن تبلغ الرجل منها ما تريد ،يقول:

لا يُؤْيسنّـــكَ مِـن مُحَبَّأَةٍ قـــــــــــــولٌ تُغَلِّظُـــــــــــــــه وإنْ جَرحـــــــــــــا
عُسْـــــــرُ النسَـــــــاءِ إلى مُيَاســـــــرَةٍ والصَّـــــــعْبُ يُمْكِـــــــنُ بَعـــــــدَ ماجَمَحَـــــــا"[51]

"ويمضي بشار داعيا إلى المتعة دونما رادع مغريا بها ويحاول أن يبرر المعصية ، فيحل القبلة ، ويغرى باجتناء زهرات الجسد واقتطاف ثمراته ، بل خطيئاته ، دون التفات إلى الناس و إلى عرفهم و ألسنتهم ، فالحياة فرص واستمتاع جسدي ، بل هجوم على هذا الاستمتاع وما يطوى فيه من لذة و إثم ، مما اقام عليه أهل الصلاح فطالبوا بإهدار دمه لدى الخليفة لكنه لا يرعوي ويقول :

قـــــالوا حـــــرامٌ تَلاَقينـــــا فقلـــــتُ لهـــــم مَـــــا في التَّلاَقِـــــي ولا في قُبْلَـــــةٍ حَـــــرَجُ
مَـــــن رَاقَـــــبَ النَـــــاسَ لَمْ يَظْفَـــــرْ بِحَاجَتـــــه وفـــــازَ بالطيِّبَـــــاتِ الفَاتِـــــكُ اللَّهِـــــجُ" [52]

## 4. 4. غزل بشار العفيف وخصائصه الفنية:

من غزل بشار بن برد الذي يستشف فيه صدقه وجمال معانيه خلافا للمعهود عنه من مجون سافر وتهتك داعر تصويره لمشاعر الحب الجياشة في نفسه المفضية به إلى البكاء إزاء إنصراف وجفاء أحبته، فقرر كتمان حبه في ضلوعه، وملازمة الحزن حتى الموت من خلال هذه الصورة الفنية:

أَبْكـــــي الـــــذينَ أذاقُـــــوني مَـــــوَدَّتَهُمْ حـــــتَّى إذا أَيْقَظُـــــوني في الهـــــوى رقَـــــدُوا
واسْـــــتَنْهَظُوني فلمَّـــــا قُمْـــــتُ مُنْتَصِـــــبًا بِثِقْـــــل مـــــا حمَّلُـــــوني وُدَّهـــــمْ قَعَـــــدُوا
لأَحْـــــرُجَنَّ مِـــــنَ الـــــدُنْيا وَ حُـــــبُّهُمْ بَـــــيْنَ الجَـــــوَانِحِ لم يشـــــعُرْ بـــــه أَحَـــــدُ
أَلْقَيْتُ بَيْني وبَيْن الحُزْنِ معرفةً لا تَنْقضِي أبدًا أو ينقَضِي الأَبَدُ[53]

وكان لبشار الذي شهر بالغزل الماجن ، غزليات في عبدة تختلف عما شهر به ، وضمن هذه الغزليات صبوته وهيامه ، يقول : (من المنسرح)

يَـــــا عَبْـــــدُ بـــــالله فَرِّجِـــــي كُـــــرَبِي فَقَـــــدْ بَـــــرَانِي وشَـــــقَّنِي نَصْـــــبِي
وضِـــــقْتُ ذَرْعًـــــا بمَـــــا كَلَفْـــــتُ بِـــــهِ مِـــــن حُـــــبِّكُم والمحِـــــبُّ في تَعَـــــبِ
فَفَرِّجِـــــي كُرْبَـــــةً شَـــــجِيتُ بِهَـــــا وحَـــــرَّ حُـــــزْنٍ في الصَّـــــدْرِ كاللَّهَـــــبِ
ولاَ تَظُـــــنِّي مـــــا أَشْـــــتَكِي لَعِبًـــــا هَيْهَـــــاتَ قَـــــدْ جَـــــلَّ ذَا عَـــــنِ اللَّعِـــــبِ

فهو هنا يشكو إليها عذابه ، وشوقه ، ويدعوها على وصله والاستجابة له ، لأنه صادق في حبه لها ، والأبيات تحيلنا إلى صورة الشاعر وهو في موقع الضعف ، غارق في يم العشق يطلب الاستغاثة من متيمته "عبدة" التي كانت السبب المباشر في ألمه وكربته يطلب إليها أن تفرج كربته ، وتشفي ألمه ، ولبشار قصائد غزلية كثيرة في "عبدة" وكلها تجنح إلى أسلوب العفة ، ومن خلال هذه الغزليات يعبر بشار عن حرمانه ، ورغبته في تحقيق الأمان والاستقرار ، إلى جانب من يحبها وأغلب الصور الشعرية في إبداعه اعتمد في نسجها على الحديث المسموع ، وكان للموروث الشعري العذري ، وسواه ، دور بارز في تشكيل صورة الشعر ، التي أخرجها إخراجا

جديدا متطورا ، ونأى بها عن الصورة المحسوسة في الواقع المعيش ، وفي الموروث الشعري ، ويعود ذلك إلى فقده البصر ، واعتماده حاسة السمع في رسم الواقع الخارجي ، بالإضافة إلى قدرته المتميزة في تشكيل الصورة الفنية وتصريف الكلام في السياقات المتنوعة والمقامات المتعددة"[54].

"وقد شهد له أبو تمام بتفوقه في مجال الغزل . وكان يقول إذا ما أنشد هذين البيتين: (من الخفيف)

زَوِّدِينا يا عَبْد قَبْلَ الراقِ بِتَلاَقٍ ، وَكَيف لِي بالتَّلاقِ

أنَا والله أَشْتَهِي سِحْر عَيْنَيكِ، وأخْشَى مَصَارِعَ العشَّاقِ

ما رأيت شعرا أغزل منه."[55]

5/ فلسفة الكره في شعر بشار بن برد:

5. 1. السخط والشكوى: لقد كان هؤلاء الشعراء العميان،يجابهون الأذى من الناس،إذ يُعيرون ويُنتقص من كرامتهم و إنسانيتهم،فضلا عن إحساسهم الشخصي بالفقد و النقص،وهو فقد لا سبيل لدرئه،ونقص لا حيلة لسده،لذلك تجد نفوسهم مليئة بالكره تجاه الناس،و الحياة،وحتى تجاه ذواتهم،فمشاعرهم سلبية،تتقاذفها أمواج السخط،و الغضب،الضجر،والنقمة،والشكوى.وتتخذ هذه المشاعر مظاهر أبرزها:السخرية من الناس والنفس،أو الهجاء.ان هذه العاهة الفادحة المؤلمة،تنتقص من الكيان الإنساني مما يجعل الكفيف حساسا،يحز في نفسه أدنى همس،فيقابل الناس بتحفز و حذر بل بعداء وهجوم،سيما اذا عومل معاملة قاسية نابية،لا تحترم فيها مشاعره.لذا يكون رد فعل الكفيف الهجاء والنيل من الآخر مما قد يرضي شعوره،ويطفئ من لهيب غيظه،ليتخذ السخط أشكاله في شعر هؤلاء العميان ألوانا.

لما عاد بشار إلى البصرة"عاد في تشف و بجرأة،وبميل شديد إلى العدوان،يريد أن ينتقم لنفسه،و يريد أن يطمس على حقارة أبيه ويريد أن يملأ حياة الناس كافة برغم أنه يكرههم ويريد أن يجعلهم يُزرون الآذان بشعره"[56] فقد أورثته عاهاته تبرما بالناس و نقمة عليهم[57]،فكان يقول:"اللهم اني قد تبرمتُ بنفسي و بالناس جميعا،اللهم فأرحني منهم.[58]

وبشار برغم تبرمه بالناس، الا أنه لا يعدم يختلط بهم،منطويا على كرهه لهم،متخذا من هجائه وسخريته سيفا يذود به عن نفسه، وهو يتحسر على فقدان الصديق المخلص، فيعبر عن كل ذلك من خلال صور فنية في شعره تنبض مرارة، وتقطر ألما مثلا يقول[59]:

خَيرُ إخوانك المشارِكُ في المرِ وأين الشَريكُ في المرِ أينَا

الذِي أن شهدتَ سرَّكَ في الحيَّ وان غِبتَ كان أذنًا و عينَا

أنت في مَعشرٍ إذا غِبتَ عنهم بدلُو كل ما يزِينُكَ شَينَا

وإذا ما رأوكَ قَالُوا جميعًا أنت من أكرمِ الرِجالِ علينَا

ما أرى للأنامِ وُدًا صَحِيحَا عادَ كُلُّ الأنام زُورًا و مينَا

5. 2. هجاء بشار المسف وخصائصه الفنية: ان الهجاء تعبير عن الواقع النفسي لهؤلاء الشعراء العميان،فهم أضعف مم يبدون عله " فأي ذنب للمرء أن يفد إلى هذا العالم، فلا يعي ذاته ، الا وهو مثقل بالمنكر و العار

اللذين لم تقترفهما يداه. لذلك كان يرافق الشاعر شعور دائم بالظلم و القسوة. ظلم للناس وظلم الحياة التي أخنت عليه بميسم ال ضعة و المنكر و جعلته مضغة تافهة في فم غول العالم.

وبعد، فان بشارا بخلاف الصورة التي ما برح النقاد يترسمونها له،كان أحرى أن يثير الشفقة و الرحمة، لأنه كان يحمل في نفسه لعنة الحياة و القدر.زالواقع أن هذا الشعار المسكين،كان يعيش في سجن دائم مع نفسه،تحيط به جهمة السواد من صوب،يسمع بالضياء و لا يتمتع به ويذكر الجمال و لا يراه...فلا عجب، بعدئذ، أن يكون الهجاء تعبيرا ايجابيا عن واقعه النفسي، ذلك أن الهجاء ليس سوى تجسيد للقبح و التشويه والمنكر.

ولبشار فلسفته في الهجاء ، فعندما سئل عن ميله في الهجاء دون المديح فأجاب : "انك لكثير الهجاء؟ فقال : إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبُع الشاعر من المديح الرائع،ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر والا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى"[60].

تزل القوافي عن لأني كأنها حمات الأفاعي ريقهن قضاء[61]

والهجاء بالنسبة إلى بشار وسيلة دفاع و هجوم في الوقت ذاته، وكان يلقب لذلك بالشر و بالشيطان، وكان يتوسل إليها رجاء ألا يهجو الواحد منهم أو كان يؤتى به خصيصا و يطلب إليه هجاء فلان و علان فهو لا يتورع عن فاحش القول و المعنى، ولا يعوزه الشعر في قول ما يريد لذا فان "الهجاء في شعر بشار ليس متساويا معتدلا، وليس أيضا متشابها، فهنالك الهجاء البذيء المقضع الذي كان يتقاذفه مع حماد عجرد، وسائر الذين تواقع معهم بشعره. ولعلنا نعجز عن ذكر تلك الأبيات الا فيما ندر، لأن الشاعر لا يتقي عن تسمية الأشياء بأسمائها بكل ما فيها من قذارة وهي غالبا شبيهة بالسباب الذي يتراشق به العامة السفلة الذين لا ينهضون إلى مستوى ثقافي رفيع .فبشار من هذا القبيل شبيه بسائر شعراء عصره، جمع ذروة ثقافة الأدبية و الفكرية إلى درك الرذائل والمنكرات وقد رأينا أن نذكر بعض الأبيات بعد أن نسقط منها الألفاظ التي لا تسيغها الأخلاق كقوله لحماد:

ما لمتُ حماد على فِسقِه يلومُه الجاهِلُ و المائقُ

وما هما من ..... مُلكِه إياهما الخالِقُ

وما بات الا ....فاسق .....فاسق

فليس للشاعر في هذا النوع من الهجاء أي وجه من وجوه القيمة الفنية،بل على العكس، فإنها شتائم مما يألفه العامة المنحطو الأخلاق .ولا جدوى من التصدي للاكثار من هذه الأمثلة لأنها متشابهة في ألفاظ القذف و المنكر، وانما نكتفي بهذه الأبيات الاخيرة لنستوفي بها ضرورة الدراسة و هي أبيات قالها في سبيل الايقاع بين المأمون و حماد عجرد،بعد أن جعله مؤدبا لابنه...زهو لا ينفك عن تحذير الخليفة من حماد:

قل للإمام ،جزاكَ اللهُ صالِحـةً لا تَجمع الدهرِ بين السُخلِ و الذِيبِ

السُخلُ غِرٌ و هم الذئب فُرصته والذئبُ يعلمُ ما في السُخل من طيبِ

ولقد سقطت الأبيات الكثيرة التي لبث هذان الشاعران بتثالبان بها، طيلة حياتهما.وقد كان ذلك لخير الشعر العربي لأن مثل تلك القصائد تسمه بالبذاءة و العقم و اللعنة، وتبعده عن التجارب الإنسانية الحية"[62].

والنوع الآخر من هجاء بشار هو هجاء يدافع به عن نفسه، ويرد به على خصومه ، من ذلك هجاؤه للأخفش و سيباويه، اذ عاب الأخفش شعره ثم سار بعد ذلك يستشهد به لما بلغه أنه هم بهجوه،ونبذه سيباويه فهجاه،يقول صاحب الأغاني في ذلك:

"كان الأخفش طعن على بشار في قوله:

فلآن أُقصرَ عن سميةَ باطلِي وأشارَ بالوَجَلى علي مُشيرُ

وفي قوله:

على الغَزَلَ مني السلامُ فرُبما لهوتُ بِها في ظل مرءومةٍ زُهرِ

5. 3. هجاء بشار الساخر وخصائصه الفنية: لقد كان هجاء بشار ، سخرية بالقيم التي ترسمها البشر،فهو يهزأ بما يرونه عيبا، ويضحك مما يتقون الجهر به، لأن شكه بنفسه جعله يشك بالحياة و قيمتها، ويقبل على تجاوزها دون فاجعة أو استغراب.

وهكذا فأن بعض هجاء بشار هو سخرية بقيم الآخر، وتحدي لمجتمع في كل مقدساته، في موضع رد فعل لما تشربته نفسه منذ صغره و التندر به من طرف الناس فكان يلجأ إلى الهجاء دفاعا عن نفسه و ثأرا لكرامته.

ولقد تضاعف شعور بشار بالمنكر،ليس فقط لعماه بل لقبح شكله أيضا، "لا شك أن الشاعر لم يكن يبصر قبح منظره، كما أنه لم يكن يبصر جمال الآخرين، إلا إن الناس في حمقهم و قساوة نفوسهم، كانوا ينبهونه إلى هذه العورات المنكرة التي وسمته بها الطبيعة، دون أن يكون له ذنب فيها،من ذلك أن أحد الأدباء دخل عليه و هو نائم في دهليزه كأنه الجاموس،فقال : يا أب معاذ من القائل :

إن في بُردي جِسما ناحِلا لو توكأت عليه لنهدم

فقال أنا .قال من القائل أيضا:

في حُلتي جِسمُ فتى ناحِل لو هبت الرِيحُ به طاحَا

قال أنا.قال فما حملك على هذا الكذب،والله اني أرى لو أن الله بعث الرياح التي أهلكت الأمم الخالية لما حركتك من موضعك.

الخاتمة:

خاض بشار بن برد، الشاعر الأكمه العباسي في شتى أغراض الشعر المعروفة، بل وكان من الشعراء المجددين شكلا ومضمونا مع بعض شعراء زمانه، وعرف عنه الهجاء والغزل خصوصا مدفوعا بحرمانه وألمه وتحديه، فنتج عن ذلك شعر لامع تارة، ومسف أخرى أخلاقيا وفنيا، إلا إن براعته غلبت عليه لذا كان له أن حفر اسمه في قائمة الخلود الأدبي.

الهوامش

1. بشار بن برد:ديوان بشار بن برد تقديم و شرح محمد الطاهر بن عاشور ، ج1، ص

2. شوقي صيف:تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول.القاهرة.ط1.سنة1966م.ج3.ص201

3. أبو الفرج الأصفهاني علي الحسن ين محمد القريشي :الأغاني.إشراف و تحقيق:إبراهيم الأبياري.طبعة دارالش عب.القاهرة.طبعة خاصة.القاهرة. سنة1969م.مج3.ص985.القطار:جمع قطر و هو المطر

4. المكان نفسه

5. المصدر نفسه .ص984 .الطلي:أصول الأعناق،واحدتها طلية

6. المصدر نفسه.ص981

7. المكان نفسه :المرعث،في ذلك روايات منها قوله: قال ربمٌ مرعث ساحرُ الطرفِ و النّظرِ

لستَ و الله نائلي قلتُ أو يغلبُ القــدر

و قيل لجيوب في قميصه،و قيل صفة في أذنه

[8].عمر فروخ :تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية:الأدب المحدث إلى آخر ق4هـ.دار العلم للملايين.لبنان.ط4.سنة1981م.ص93

[9]. أحمد كمال زكي :الحياة الأدبية.ص463

[10].شوقي صيف :تاريخ الأدب العربي.ج3.ص202

[11]. انظر عمر فروخ:تاريخ الأدب العربي.ص93

[12]. شوقي ضيف :تاريخ الأدب العربي.ج3.ص206

[13]. لمزيد من التفصيل انظر:أحمد حسن الزيات:تاريخ الأدب العربي.ص192_193

[14]. شوقي ضيف :تاريخ الأدب العربي.ج3.ص202

[15]. عمر فروخ :تاريخ الأدب العربي.ص93

[16]. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي . ص 193 . وأبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ، مج3 ، ص 987

[17]. انظر :أبو الفرج الأصفهاني:الأغاني.مج3.ص991

[18]. أندري ميكائيل:الأدب العربي.ص51

[19]. انظر:عمر فروخ:تاريخ الأدب.ص93.و أحمد كمال الزكي:الحياة الأدبية في البصرة.ص464.

[20]. انظر:أبو الفرج الأصفهاني:الأغاني.مج3.ص1094.

[21]. المرجع نفسه:ص995_1024

[22]. جرجي زيدات :تاريخ آداب اللغة العربية.ص97

[23]. عمر فروخ :تاريخ الأدب.ص93

[24]. اميل ناصيف:أروع ما قيل في الخمرة ومجالسها. دار الجيل ، بيروت ، ط2 ، ص67

[25]. لمزيد من التفصيل انظر :أبو الفرج الأصفهاني:الأغاني.ص1067،1000،989

[26]. ابن رشيق :العمدة.ص175

[27]. أبو الفرج الأصفهاني :الأغاني.مج3.ص981

[28].المصدر نفسه:.مادة كمه

[29].محمد طه عصر:سيكولوجية الشعر.العُصاب والصحة النفسية.أميرة للطباعة.ط1.سنة2000م.ص7_8

[30] عبد المغامري : الصورة البصيرية ، ص351

[31]. انظر :عز الدين إسماعيل:التفسير النفسي للأدب.مكتبة عزيب.القاهرة.ط4.ص4

[32]. المرجع نفسه.ص63

[33] عبد الله المغامري : الصورة البصرية ، ص163.

[34] المرجع نفسه ، ص 163 عن طه حسين : الأيام ، دار المعار ف، القاهرة ، ط8 ، سنة 1991م ، ص95

[35]. أبو الفرج الأصفهاني :الأغاني.ص987

[36]. شوقي ضيف :تاريخ الأدب العربي.ص207

[37]. أبو الفرج الأصفهاني:الأغاني.ص333

[38]. اليا حاوي :فن الهجاء و تطوره عند العرب.دار الفقافة،بيروت.سنة1998م.ص446

[39]. شوقي ضيف :تاريخ الأدب العربي.ج3. ص201

[40]. بشار بن برد:ديوان بشار بن برج.تحقيق:الطاهر بن عاشور.الشركة التونسية للتوزيع.تونس.ج4.ص154 ، والجاحظ: البرصان والعرجان والعميان والحولان، دار نوبيليس، لبنان، ط1، سنة 2005م، ص 23

[41].أحمد حسن الزيات:تاريخ الأدب.ص193
[42].انظر:أبو الفرج الأصفهاني:الأغاني.ص1014
[43].جرجي الزيدان :تاريخ آداب اللغة.ص95
[44]. بشار بن برد:ديوانه. ج3.ص145
[45]. أبو الفرج الأصفهاني :الأغاني.مج3.ص1013
[46]. المصدر نفسه.ص987
[47]. بشار بن برد:ديوانه. ج4.ص65
[48]. اليا حاوي :فن الهجاء وتطوره عند العرب.ص447
[49].أحمد علي:سلوك الإنسان بين النظرية والتطبيق.مكتبة عين شمس.القاهرة.ص198
[50].بشار بن برد: ديوان بشار بن برد. ج3. ص153 وحنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، ص280.
[51] محمد زكي العشماوي: موقف الشعر من الفن و الحياة في العصر العباسي، ص123
[52] شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ص 217- 218 . و إليا حاوي : فن الهجاء ، ص 449
[53] بشار بن برد : ديوان بشار ، ج 4 ، ص 45.
[54] نور الدين السد ، الشعرية العربية ص 492 ، 493.
[55] المرجع نفسه ، ص 295.
[56].أحمد كمال زكي:الحياة الأدبية في البصرة.ص464
[57].عمر فروخ :تاريخ الأدب العربي.ص93
[58].أبو الفرج الأصفهاني:الأغاني.مج3.ص1054
[59].بشار بن برد:ديوان بشار بن برد. ج4.ص243
[60].المصدر نفسه.ص1053
[61].أحمد زكي كمال :الحياة الأدبية في البصرة.ص158
[62].اليا حاوي :فن الهجاء.ص451